Happy Prince

Oscar Wilde

الأمير السعيد

للأديب الأنجليزي الإيرلندي

أوسكار وايلد

obeikandl.com

هذه روحٌ جالت العالمَ بروح طفلٍ وعقل فنان ورغم ذلك اعتراها شططٌ مارقٌ. لماذا غلبَ جموحُ الهوى على روح الفنان؟ هذه القريحة التي أنتجت مثل هذا الجمال لا تليق بتلك النهاية. لسنا على الأهواءِ نلومُك ولسنا نحكم على الأشخاص، لكن تاريخ الفن كان ليسطعَ بك أكثر لو تفرغت له قليلا، لو أنصَتَ لروح الفنان في آخر عمرك. ما كان لينقصَ هذا العالم شيئًا لو غالبتَ نزواتك قليلا، لكن تاريخ الفن كان ليسطعَ ألقًا وذهبًا لو تجاوزت حدودك وانطلقت في عالمه، لكنا اليوم نبكي معًا ونبتهج معًا، كما ابتهجنا الآن مع السنونو وكما دمعت أعينُنا مع الأمير، لكُنا ناولنا ملاك الرب أشياءً أخرى ثمينةً. كيف لم تسطعْ جذوةُ الفنِ المتأججة داخلك هذه أن تسحبَكَ من عالمِك الأرضي..

حُوكِمَ أوسكار وايلد "صاحب هذا النص العظيم" وسُجن في آخر عمره بعد أن كاد يُعدم... ليس هذا ما يجب أن يعلقَ بالذاكرة حين تتحدث عنه.. إن فنَه نقطةُ ضوء ساطعة في مسارِ الأدب، لكنك ربما تفعل مثلي، حين تجد إبداعًا خالصًا كهذا فتنظر إلى حياة صاحبه وتأسى وتتخيل كم كان الأمر ليصبح أروع لو لم يمت قبل أن يتم السادسة والأربعين، مضيعًا قبلها أعوامًا أخرى في متاهات السجون.

"الأمير السعيـــد"

عاليًا في المدينة، على قاعدة رخامية، يقف تمثالُ الأمير السعيد، تغطي أجزاءَه أوراقٌ ذهبيةٌ.. عيناه من الماسِ الخالص، وتغطي قبضةَ سيفهِ غلالةٌ من الذهب الخالص.

"إنه مثير للإعجاب بالفعل.. يقف مختالًا كالطاووس،

قال ذلك المحافظ الجديد الذي يريد أن يشتهر بالذوق الفني..

"لكنه بغير فائدة عملية"

أضاف هذه الجملة الأخيرة حتى لا يظنه الناس يفضل الجمالَ على الغايةِ العملية.

وقالت أمٌ لابنها الذي يبكي: لماذا لا تكون كالأمير السعيد، الذي لم يبك أبداً.

obeikandl.com

وقال رجلٌ محطمَ النفس: يدهشني أن يكون في العالم رجلٌ بهذه السعادة.. حتى وإن كان تمثالًا

وقال طفلٌ يتيم من تلاميذ الملجأ لصاحبه وقد خرجا توا من إحدى الكنائس مزدانين بعبائتهما القرمزية فوق المريلة البيضاء الزاهية: إن هذا الأمير يبدو كالملائكة..

سمعهما مدرس الرياضيات وسأل: وكيف عرفتما منظر الملائكة؟ هل رأيتماها من قبل؟

قال الطفلان: نعم، رأيناها كثيرا في أحلامنا..

اقتضبت ملامح الأستاذ الذي لم يكن يعترف بقيمة الأحلام.

***

في يوم حلقَ طائرٌ مهزومَ القلبِ فوق ذُرَى المدينة، كان يبحث عن مكان يبيت فيه ليلته قبل أن يستكمل السفرَ في الصباح..

كانت بقيةُ الطيور قد سبقته إلى مصر منذ ستة أسابيع، أما هو فقد بقي في المدينة لأنه تعلق بعصفورة زاهية اللون.. عشقها فور أن رآها في

الربيع، كان يطير فوق النهر فانجذب إليها بشدة، ترك الرفاق وتوقف عندها وسألها مباشرة:

"لقد أحببتك.. أعلم أن كل من رآك أحبك، لكنني سأكون أشدهم ولاءً، فهلَّا بادلتِني حبًا بحب؟"

انحنت الجميلة بمنقارها نحوه فطارَ السنونو حولها جزلًا، ضربَ صفحةَ الماء بجناحيه محدثًا فيه دوامات متغيرة جميلة؛ كانت هذه علامة الغزل. ابتسمت العصفورة في دلال فخلبت لبه؛ بقى معها متخلفًا عن زملائه طوال الصيف.

قال له طائرٌ رفيقٌ قبل الرحيل "عندما يأتي الخريف ستعود إلى موطنها وتتركك" ، لكنه أعرض عنه.

بعد قليل شعر بالوحدة، اكتشف أنه لم يكن وحده، تَعبَ من هذه التي تعشق عشقه ولا تعشقه، لا ينالها أبدا ولا تسمح له أن يفقد الأمل.. كان طائراً ضمن طيورٍ كثيرة تحبها.. كلهم يَمَنون النفس بحبها، تبث الأمل فيهم جميعا، تُعرض عمن أقبل وتدعو من ملّ فلا يسع الجميع إلا أن يدوروا حولها

في عشق دائم. شعر أن وجوده معها هو تكرار رتيب لآلاف القصص السابقة عن عشق العصافير.. قرر الرحيل ليبحث عن حياة حقيقية يجد نفسه فيها.

اقتلع نفسه بعنف؛ طار قبل أن يعاوده حنينه.. مسرعاً.. مسرعاً.. ألقى نظرة سريعة على عصفورته.. وجدها تبحث عن عشق آخر. تعجب من هؤلاء الذين تشبثوا في الأرض وأمامهم السماء.

طار مبتعدًا حتى أرهق جناحيه لأقصى مدى.. قطعَ على نفسه فكرةَ الرجوع

حلَّ الليل، قال لنفسه كسيفًا: أين أحط رحالي!

ثم شاهد التمثال الجميل واقفًا في صدر المدينة، سأحط رحالي هناك، وهبطَ بين قدمي الأمير السعيد

" لدي الآن حجرة ذهبية"

تَجَهَزَ للنوم.. ولكن ما أن وضع رأسه بين جناحيه سقطت نقطة ماءٍ كثيفة فوقه ..

obeikandi.com

"لا توجد سحابة واحدة والنجوم تلمع في السماء.. ورغم ذلك تمطر.. كانت العصفورة تحب ماءَ المطر.. لكنها لم تكنْ تعبأ بالآخرين."

سقطت نقطة أخرى "ما فائدة التمثال الذهبي إن لم يكن قادراً على منع المطر؟"

قرر الرحيل، ولكن قبل أن يفتح جناحيه سقطت فوق رأسه نقطة ثالثة، نظر فوقه فرآه، يا للعجب!! عينا الأمير ملأى بالدموع، تسيل على خدوده الذهبية بغزارة.. كان وجهه جميلًا في ضوء القمر، امتلأ قلب الطائر الصغير بالأسى.

- من أنت؟

- أنا الأمير السعيد.

- فلماذا تبكي إذن؟ لقد بللتني.

- عندما كنت حيًا وبداخلي قلبُ إنسان لم أكن أعرف ما هي الدموع، لم يكن مسموحًا للحزن أن يدخل قصري.. كنت أقضي النهار لاهيًا والليل لاهيًا.. كانت جدرانُ القصر سميكة من الرخام، لم أهتم أبدًا بمعرفة ما يلي

oberkandl.com

هذه الجدران، لم أكن ألتفت خارجها.. لم أكن أعرف المدينة.. كانت السعادة حولي.. كان كلُ ما حولي جميلًا فأسموني" الأمير السعيد "

كذلك عشت، وعلى ذلك مِت، والآن وضعوني هنا في هذا المكان الشاهق لأرى كلَ القبح والبؤس في مدينتي دفعةً واحدة، قلبي الآن مصنوعٌ من النحاس، لا أملك غير الدموع، ليتني أعود للحكم يومًا واحدًا.

- ماذا؟! أليس قلبك أيضا مصنوعاً من الذهب؟

أراد الطائرُ بسؤاله أن يصرف الأمير عن أحزانه بغير إبداء ملاحظة شخصية عن أحزانه.

قال الأمير بصوت منغَمٍ خفيض "بعيدا في الشارع الضيق، يوجد منزل متهالك، داخله تجلس امرأةٌ منهكة القلب، يدُهَا مليئةٌ بالندب التي خلفتها إبرة الخياطة، تحيك ثوبًا مزركشًا لفتاة ثرية ستحضر به حفلة رأس السنة، بجوارها على السرير يرقد طفلُها الوحيد محمومًا، إنه يحتاج لكوب عصير، ليتني في حديقتي، ليس لدى أمه المسكينة سوى الماء؛ لذلك تبكي، أيها الطائرُ

الصغير، هلا خلعت مقبض سيفي الذهبي وذهبت به إليها؟ قدماي مثبتتان؛ لا أستطيع الحراك"

- أصحابي ينتظرونني بجوار النيل في مصر بين أوراق اللوتس.. سينامون بعد قليل في مقبرة الملك الأعظم وحول عنقه قلادة النيل الزرقاء وفي يديه ترقد عصا الملك معه.

- طائر.. طائري الصغير هلا بقيت معي لليلة واحدة!! الطفل ظمآن وأمه بلا حيلة.

أظنُ أني لا أحبُ الأطفال.. عندما كنت بجوار النهر في الصيف الماضي كان صبيان يقذفاني بالأحجار الصغيرة.. أعرفهما، إنهما أبناء الحداد.. بالطبع لم يصبني حجرٌ واحد؛ فأنا أطيرُ عالياً؛ أنا من عائلة تشتهر بالرشاقة، ولكن يظل هذا دليلًا على عدم الاحترام.

أطرقَ الأميرُ السعيدُ حزينًا فقال الطائر

" المكان بارد هنا ولكنني سوف أبقي معك لليلة واحدة وسأكون رسولك"

انتزع الطائر القبضة الذهبية لسيف الأمير، حملها وطار فوق أسطح البيوت في المدينة ومر فوق قصورها... رأى فتاة جميلة في إحدى "البلكونات" مع حبيبها يحدثها عن جمال القمر وتقول له: أتمنى آن يكون فستاني جاهزاً قبل حفلة الرقص.. أعطيته للخياطة ولكنها امرأة كسلَى.

مرَّ فوق النهر، شاهدَ المصابيحَ تسطع فوق سطحِ الماء، رأى أحدَ المرابين في منزله يرتب أكداسًا من أكياس النقود. وصلَ إلى المنزل الفقير فدخل من شباكٍ رث، كان الطفلُ يهذي محمومًا، بجواره سقطت الأمُ نائمة فوق ماكينة الخياطة. وضعَ قطعةَ الذهب بجوار السيدة النائمة.. طار برقة حول سرير الصبي، بدأ يضرب بجناحيه الصغيرين حول وجههِ محدثًا هواءً لطيفًا على جبهته الصغيرة.

فتح الطفل عينيه وهمس لنفسه "لم أعد أشعر بالبرد، لابد أنني شُفيت"

ثم غرق في نوم جميل.

عاد الطائر إلى الأمير السعيد وأخبره بما حدث، قال:

- أعجب من شعوري بالدفء رغم برودة الشتاء!

- ذاك دفءُ القلبِ يا صديقي.

بدأ الطائر الصغير يفكر.. نام.. التفكير يأخذه دائمًا إلى للنوم

عندما طلعَ النهارُ ذهبَ ليستحمَ في النهر..

قال أحدُ أساتذةِ الطبيعة: ما هي الظاهرة العجيبة! "سنونو" في الشتاء! هنا!

كتب مقالًا طويلًا عن هذه الظاهرة.. لم يفهمْ الناسُ معظمَه.

همسَ الطائر لنفسه: "الليلة سوف اذهب إلى مصر"

شعر بالسعادة لأنه ذاهبٌ لأصحابه ولأنه لم يعدْ يفكرُ في أمرِ العصفورة.

عندما اكتمل القمرُ طار نحو كتفَي الأمير السعيد وقال له:

- هل تريد شيئًا من مصر.. سأرحل الليلة

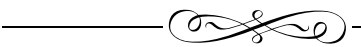

obeikandl.com

- طائر.. يا طائري الصغير.. هلا بقيت معي ليلة أخرى !

- أصدقائي ينتظرونني الآن في مصر، سيطيرون الليلةَ إلى الشلالات، حيث يرقدُ فرسُ النهر بين البوصِ كسلان في الطين ..

- يأيها الطائرالصغير، هناك في أقصى المدينة، أرى شيخًا عجوزًا يفتش في أكوامِ القمامة عن شيء تبقى من موائدَ الأغنياء ليطعمَ به أبناءه، في عينيه نظرةٌ واهنةٌ والجو في منتهى البرودة، الجوع والإرهاق يوشكان أن يهدماه.

- سأبقى معك لليلة أخرى، ليلة واحدة فقط.

- عيناي صُنعتا من الألماس الخالص، جئ به خصيصًا من الهند منذ آلاف السنين.

انتزعْ واحدةً منهما واذهب بها للعجوز، سيبيعها ويعود بالطعام لأولاده.

- سيدي الأمير، سيكون ذلك قاسيًا، أنا لا أستطيعَ فعلَ ذلك.

- يا طائري الصغير، افعل ما آمرك به.

طار السنونو نحو عين الأمير وانتزع بمنقاره إحدى الماستين ثم طار نحو العجوز بغير أن ينظر لعين الأمير، لم يكن ليحتملَ أن يراه حينها.

في النهار التالي ذهب السنونو ليشاهد الصيادين على الشط. وقف فوق صاري سفينة وتمتع بأغانيهم ذات النغمة الواحدة.. أعجب بصدورهم المفتوحة وسواعدهم القوية وهم يسحبون أحبال الشباك، ملأته البهجة؛ صفقَ بجناحيه مبتهجًا وصرخ من فوق صاري السفينة في نشوة: "سأذهب إلى مصرَ اليوم"

عندما ارتفع القمر في السماء ذهب إلى الأمير السعيد.

- جئت لأودعَكَ الوداعَ الأخير.

- طائري.. يا طائري الجميل.. هلا بقيت معي لليلة أخرى

- اشتدت البرودة هنا ويوشك الثلج أن يتساقط.. الشمس في مصر دافئة وعلى شاطئ النهر في الطين ترقد التماسيح وفي عينيها نظرة استرخاء.. رفاقي يبنون أعشاشهم فوق المعابد فيشاهدهم الحمام ويتبادلون الهديل..

أميريَ الجميل.. لابد أن أرحلَ الليلة لكني لن أنساك أبداً.. في الربيع القادم سوف أُحضر لك ماسة جميلة لعينك وقطعة ذهب جميلة لمقبض سيفك.

- في أحد المنازل بأسفل الطريق يجلس شابٌ على مكتبه، رأسه بين كفيه، حوله أوراق كثيرة. يحاول إنهاء قصيدة تضطرب في داخله.. إنه في منتهى الأسى.. يكتب كثيرا ويتألم للبشر.. لكن لا أحدَ يقرؤه، اذهب إليه وأعطه الماسة الأخرى، إنه يكتب فنًّا حقيقيًا.. يوشك اليأسُ أن يوقفه عن الكتابة.

- سأبقي معك ليلة أخري.. لكنني لا أستطيع انتزاع الماسة.. سوف تصير أعمى..

- طائري.. يا طائري الصغير.. افعل ما آمرك به

طار نحو الأمير وانتزع عينه الأخرى، طار بغير أن ينظر إليه.. كانت في حجرة الكاتب فتحةٌ صغيرة.. دخل منها.. ألقى الماسة الزرقاء على إحدى الأوراق..عندما رآها المؤلف قال:

openkandil.com

أخيرًا نالني التقدير.. لا بد أن أحدَ المعجبين بقصصي أهداها لي، الآن سأكمل الكتاب.

عاد السنونو إلى الأمير.

- لقد أصبحت الآن أعمى، لم يعد بإمكاني أن أتركك؛ سأبقي معك للأبد.

- لا.. يا طائري الصغير.. لا بد أن تذهب إلى مصر.

- سأبقي معك للأبد.

ثم نام بين قدمي الأمير.

طوال اليوم التالي جلس على كتف الأمير وأخبره عن العجائب التي رآها في أسفاره وغرائب الأراضي البعيدة.. حدثه عن البجع ذي العنق العجيب؛ يلتقط الأسماك ويدخرها في جيب عنقه الواسع.. حدثه عن أبي الهول العظيم، ذلك القديم قدم العالم والذي يعيش في الصحراء ويعرف كل شيء، وعن التجار الذين يمشون ببطء بجوار جمالهم يحملون التوابل والعطور وهم يترنمون بالأغاني.

obeikandl.com

- طائري الرقيق، لقد أخبرتني أشياءً عجيبةً ولكن الأعجبَ من كل شيء هو معاناة البشر.. لا يوجد ما هو أغرب من بؤس البشر.. طِر فوق مدينتي وأخبرني ما تراه.

طار السنونو فوق المدينة الكبيرة.. رأى حفلاتِ الزفاف في القصور الفاخرة بينما يقف الفقراءُ على أبوابها.. طار في الحواري الضيقة المظلمة.. رأى وجوه الأطفال التي ابيضت من شدة الجوع.. رأى طفلين نائمين أسفل الكوبري الضخم متشابكي الأيدي في محاولة للشعور بالدفء.. عاد وأخبر الأمير بكل ما رآه .

- أنا مُغطى بالأوراق الذهبية، سيفي من ذهب العراق الذي لا ينطفئ.. انتزِعْ كل ذلك، ورقة ورقة، وطُفْ بها على فقراء مدينتي .. الفقراء دائماً يظنون أن الذهب يمنحهم السعادة.

ورقة بعد ورقة من الذهب الخالص، أخذ السنونو الصغير ينتزعها من جسد الأمير السعيد، ورقة بعد ورقة من الذهب الخالص، أعطاها للفقراء.

بعد نزع الأوراق الذهبية بدا الأمير السعيد منطفئًا وكابيا، عكس قلبه تمامًا؛ كان سعيدًا بالفعل.

بدأت وجوه الأطفال تنضر بلون وردي جميل وبدءوا يضحكون ويلعبون حوله.

*****

عندما بدأ موسم الثلج غطى الجليدُ مساحاتِ الأرضِ وبدت الشوارع كأنما هي مغطاة بالفضة.. ذهب كل حي ليستدفئ بالنار.. ارتدى الأطفال المعاطف والقلنسوات الكثيفة .

بارداً كان السنونو المسكين، لكنه لم يترك الأمير السعيد. جمع كسرات الخبز الساخنة من عند الخباز، تسلل والتقطها بغير أن يراه.. حاول أن يستدفئ بضم جناحيه حول نفسه بشدة، لكنه في النهاية أدرك أن البردَ قاتله.. تبقت لديه قوةٌ قليلةٌ ليرتفعَ إلى كتفي الأمير الأعمى وهمس.

- الوداع يا أميري الحبيب.. أتسمح لي أن اقبل يديك؟

- يسرني أنك ذاهبٌ إلى مصرَ أخيراً.. قبلني في فمي؛ لأني أحبك بشدة.

- ليس إلى مصرَ.. سأذهب إلى وادي الموت.. الموت رفيق الحياة.. أليس كذلك يا أميري؟

ثم قَبَّل الأميرَ في شفتيه وسقط بين قدميه ميتًا.

في نفس اللحظة ضجَّ صوت ارتطام بداخل التمثال.. انفطر قلبُّه المصنوعُ من نحاس وانشق في جوفه إلى نصفين.

في صباح اليوم التالي كان محافظ المدينة يتفقد الميدان بصحبة العمدة.

عندما مر بجوار التمثال قال: كم يبدو هذا التمثال بالياً وقبيحًا.

- هو بالٍ بالفعل..

دائماً يوافق العمدة المحافظ.

صعدا ليشاهدا التمثال عن قرب..

"لقد سقطت أوراقه الذهبية.. لم يعد أكثرَ من متسول،" ضَحِكا.

"وها قد سقط طائرٌ ميتٌ عند قدميه.. يا للمكان العفن!"

obeikandl.com

في اليوم التالي كانوا ينزعون التمثالَ عن موضعه.

قال المحافظ: ما دام لم يعد جميلًا، لم يعدْ ذو فائدة.

أُدخِل التمثال في المحرقة ليتم صهر معدنه..

وفي المحرقة، قال أحدُ العمال:

يا له من شيء عجيب! هذا القلب النحاسي لا ينصهرُ في التَّنُور..

قال زميله: ألقُوه بالخارج؛ لا نفع فيه.

أُخذ القلب وألقيَ به في كومةِ النشارة حيث يرقد السنونو ميتًا..

*****

قال الربُ لملاكِه المقرب في السماء: اذهب إلى الأرض وأحضر لي أثمن شيئين فيها؛ أريد أن أرى اختيارَك.. في غمضة عين كان الملاك عائدًا بقلب الأمير وبالطائر الصغير.. وابتسم الربُ راضيًا.

obeikandl.com